أثر قصيدة المنفرجة لابن النحوي في الحركية الثقافية العربية

د. عبد القادر لصهب
أ. محمّد درق
المركز الجامعي مغنية
الجزائر

تقديم:

تعد "المنفرجة" لابن النحوي من المتون الطافحة بالاستشهادات اللغوية والدينية وحتى الصوفية، ذلك أنها تميزت بالجمع بين الأدب والتصوف، يبدؤها الناظم بمقدمة توسلية لله عز وجل بأن يفرّج عنه شدة ألمت به، ومن ذلك اتخذت هذه القصيدة تسميتها بالمنفرجة، ثم يتوجه إلى الإرشاد إلى سلوك طرق النجاة من خلال تمثّل أوامر الله تعالى والإقبال على الطاعات والابتعاد عن نواهيه باجتناب المعاصي، ثم يختم قصيدته بالصلاة على النبي والثناء عليه وعلى صحابته الكرام. وهي قصيدة تفيض بالحكمة والموعظة الحسنة، كما لا تخلو من بعض الإشارات الصوفية، ذلك أن ابن النحوي كان متأثرا بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي وكذلك بشاعر الصوفية الأكبر "عمر بن الفارض".

وقد لاقت القصيدة إقبالا من لدن الشيوخ والعلماء فتصدوا لها بالشرح حينا وبالتعليق حينا آخر، وبالتخميس الشعري والتضمين أحيانا وبالتقليد أحايين أخراة. بيد أنها ورغم ذلك لم تلق الاهتمام الجدير بها من لدن الدارسين، بالرغم مما تطفح به من دلالات وقيم معرفية، كما أن ناظمها "ابن النحوي" لم يلق العناية المنوطة به من قبل كتاب السير والتراجم، أو من النقاد والمشتغلين على التراث الأدبي والصوفي الجزائري خصوصا والعربي على وجه العموم.

ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول تسليط ضوء الدرس على ابن النحوي كشخصية فاعلة في التاريخ الثقافي الجزائري، وكذا لما لها من حضور في المدونة المعرفية المغربية عموما، وهذا في قرون شهدت فيها الساحة الثقافية نبوغ العديد من الأعلام الذين كانت تصدر أعمالهم من مشكاة واحدة هي المشهد الثقافي العام الذي عاشته منطقة المغرب عموما ما بين القرن السادس وحتى القرن العاشر الهجريين.

وكذلك سنحاول رصد صدى "المنفرجة" في ذاك الزخم المتلاطم، حيث كانت أعمال المتصوفة تمثل استثناء في تعامل السلطات الرسمية للمغرب عامة مع مصنفات الشيوخ وذوي المكانة من أهل العلم؛ فالمنفرجة لم تكن نموذجا غير مسبوق؛ إذ أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي له قصيدة على نفس المنوال

وتسمى بنفس التسمية، ولم يكن خافيا على العلماء حينئذ وجود مثل هذه القصيدة ولا مدى تأثيرها في قصيدة ابن النحوي.

1- ابن النحوي؛ بطاقة تعريف:

هو أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف، وابن النحوي اسم لصق وعرف به، ولد عام 434 للهجرة بـ "توزر" (إحدى ضواحي قلعة بني حماد) وتشير بعض الروايات أنه ولد سنة 433 للهجرة. أخباره قليلة؛ إذ لم تشر المصادر بكثير حول نشأته، لاسيما ما تعلق منها بصغره وخطواته العلمية الأولى، ولا تقدم الروايات كثيرا عن شيوخه الذين أخذ عنهم، اللهم إضاءات خافتة بين ثنايا بعض المؤلفات.

وردت ترجمته كذلك في كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"، وكذا "تعريف الخلف برجال السلف"، ويذكر عبد الوهاب شريف الحسني أن ابن النحوي "كان ﷺ من أهل العلم والفضل خيّرا زاهدا مجاب الدعوة ، على هدي السلف السالف ، توفي بقلعة بني حماد (الجزائر) سنة 513هـ"[1]؛ فقد جاء عن ابن الأبّار (ت.658هـ) أنه أخذ صحيح البخاري عن اللخمي، كما أخذ العلم عن المازري وابن زكرياء الشقراطبي وعبد الجليل الربعي وغيرهم[2]، وقد "روى صاحب مذاق الضرب في مقدمة شرحه أنه توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وانقطع خبره عن أهل بلده أعواما متطاولة"[3]، وتشير الروايات إلى أنه بعد عودته إلى بلدته "توزر" وجد أن واليها قد اعتدى على أملاكه وأخذها غصبا، وحينها قال هذه القصيدة التي سميت بالمنفرجة لطلبه انفراج هذه الشدة التي ألمت به.

وبعد أن منع من استرداد أملاكه من والي توزر هاجر إلى المغرب الأقصى، ثم إلى سجلماسة، حيث أنكر على الناس فيها تخصيصهم مكانا معينا لكل واحد في المسجد؛ فيقال هذا الموضع لفلان وذاك موضع أبي فلان، وقال في ذلك: "ما ظننت هذا يكون في بيت من بيوت الله" وأخذ يدرس به أصول الدين وأصول الفقه، وحدث يوما أن مر به أحد رؤساء البلد يقال له عبد الله بن بسام، فسأل عما يقرئه فقيل له أصول الدين وأصول الفقه، فأنكر عليه ذلك وقال: "إنّ هذا يريد أن يدخل علينا علوما لا نعرفها" ذلك أن علماء المغرب كانوا قد أجمعوا على الرأي فيما يخص الفروع الفقهية، وأمر بإخراجه من المسجد؛ فقال أبو الفضل ابن النحوي لابن بسام: "أمتّ العلم أماتك الله ههنا". ويقال
أن الله استجاب لدعوته وتقبلها، فقتل ابن بسام صبيحة اليوم التالي في المكان الذي دعا فيه[4].

ثم رحل أبو الفضل من سجلماسة قاصدا مدينة فاس، حيث نزل عند ابن دبوس القاضي وذلك عام 494 هجرية، ولبث بها مدة، حيث لزمه شيوخ وعلماء منهم أبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي وغيره، وقد ألمت بابن النحوي شدتين وهو بفاس؛ أما الأولى فكانت إصدار ملك المغرب علي بن يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين، أمرا بإحراق كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، وذلك لما يكنه المرابطون اتجاه بعض العلوم، خصوصا العلوم الصوفية، وكان موقف أبي الفضل إنكارا لحرق كتاب الإحياء وانتصارا لأبي حامد الغزالي[5]، وذلك ما شكّل له أزمة يمكن اعتبارها سياسية لمعارضته أمر الحاكم

وإنكاره عليه، أما الشدة الثانية فكانت أمر ابن دبوس، قاضي فاس، ابن النحوي بالخروج من المسجد بسبب تدريسه أصول الدين وأصول الفقه، وقد روى أبو الحسن ابن حرزهم أنه "لما عزم أبو الفضل على الخروج من فاس قطع الليلة التي خرج منها في صبيحتها بسجدة واحدة ودعا في آخرها فقال "اللهم عليك بابن دبوس" فأصبح هذا الأخير ميتا"[6].

وقد أخذ العلم عنه كثير من المشايخة والعلماء الذين احتفى بهم التاريخ الثقافي للجزائر، ومن بين من أخذ عنه "ابن الرماية وأبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي وغيرهما"، وجاء في كتاب "إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر" أن ابن النحوي كان بالمغرب "كالغزالي بالمشرق علما وعملا"[7].

وبعد خروجه من فاس عاد الشيخ ابن النحوي إلى قلعة بني حماد وبقي بها حتى وافاه الأجل عام 513 هجري[8]. ومن ثم تتجلى شخصية ابن النحوي كمنار معرفي زاخر بالعطاء؛ شخصية سجلت حضورها على الساحة الثقافية – الفكرية والأدبية الجزائرية، بفعل ما تركت من بصمات متنقلة في الزمان والمكان.

وإضافة إلى نبوغ ابن النحوي في أصول الدين وأصول الفقه، فقد كان لديه حس أدبي رفيع؛ فقد برع في الأدب ونبغ في علوم اللغة، وله شعر يفيض رقة وعذوبة، ومن شعره نظمه المعروف بالمنفرجة، والتي يقول فيها[9]:

اِشْتَدِّي أَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَجِ[10]
وَظَلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ[11]
وَسَحَابُ الخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الإِبَّانُ نَجِ
وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلٌ لِسُرُوجِ الأَنْفُسِ وَالمُهَجِ

والقصيدة طويلة رائعة. وله كذلك شعر كثير عدا هذه القصيدة، غير أن شعره لم يجمع شتاته بعد من بطون الكتب ولم يضم في ديوان جامع. ومن شعره كذلك[12]:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا والنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا فَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ يَا سَيِّدِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا مَنْ عَلَيْهِ بِكَشْفِ الضُرِّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالضُرِّ مُشْتَكِيًا إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ

وله شعر كثير في التوسل إلى الله عز وجل. وإضافة إلى شعره في التوسل، فإنه مدح أبا حامد الغزالي بقصيدة قال فيها[13]:

أَبُو حَامِدٍ أَحْيَا مِنَ الدِّينِ عِلْمَهُ وَجَدَّدَ مِنْهُ مَا تَقَادَمَ مِنْ عَهْدِ
وَفَقَّهَهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا أَتَى بِهِ وَأَلْهَمَهُ فِيمَا أَرَادَ إِلَى الرُّشْدِ
فَفَصَّلَهَا تَفْصِيلاً فَأَتَى بِهَا فَجَاءَتْ كَأَمْثَالِ النُّجُومِ التِّي تَهْدِي

كما يروى عنه شعر في اشتياق مصر وحنينه إليها التي مكث بها مدة قصيرة أثناء زيارته إلى الحجاز؛ فقال فيها[14]:

أَيْنَ مِصْرُ وَأَيْنَ سُكَّانِ مِصْرَ   بَيْنَنَا شُقَّةُ النَّوَى وَالبِعَادُ
حدثاني عن نيل مصر فإنني   مُنْذُ فَارَقْتُهُ إِلَى المَاءِ صَادِ
وَالرِّيَاضُ التَّي عَلَى جَانِبَيْهِ   وَاجْعَلاَهُ مِنَ الأَحَادِيثِ زَادِي
رَقَّ قَلْبِي حَتَّى لَقَدْ خِلْتُ أَنَّنِي   بَيْنِ أَيْدِي الزُّوَارِ وَالْعُوَّادِ
مَا تَرَانِي أَبْكِي عَلَى كُلِّ رَبْعٍ   مَا تَرَانِي أَهِيمُ فِي كُلِّ وَادِ

وكذلك قال في مدينة فاس[15]:

يَا فَاسُ مِنْكِ جَمِيعُ الحُسْنِ مُسْتَرَقٌ   وَسَاكِنُوكِ أُهَنِّيهِمْ بِمَا رُزِقُوا
هَذَا نَسِيمُكِ أَمْ رُوحٌ لِرَاحَتِنَا   وَمَاؤُكِ السَّلْسَلُ أَمِ الوَرِقُ
أَرْضٌ تَخَلَّلَهَا الأَنْهَارُ دَاخِلَهَا   حَتَّى المَجَالِسُ وَالأَسْوَاقُ وَ الطُّرُقُ

وإضافة إلى رصيده الشعري، فقد ترك ابن النحوي بعض الآثار التي ذكرها صاحب عنوان الدراية، وهي أربعة آثار أولها كتاب خاطب به فقهاء تلمسان، وهو رسالة تقع في صفحتين توجه بها إليهم خشية أن يتأثروا بأمر ملك المغرب بإحراق كتاب الإحياء للغزالي، والكتاب الثاني رسالة ضمنها موقفه من الإحراق وكذا انتصاره للإمام الغزالي، ثم كتاب له في التفسير سماه "قراضة المجد في تفسير سورة الحمد"، وكذا وصية كتبها آخر أيامه وتقع في صفحة وثلث الصفحة[16].

وبهذا يمكن القول أن أبا الفضل بن النحوي ترك تراثا أدبيا، شعرا ونثرا، لكنه لم يلق الاهتمام اللائق من لدن الدارسين، بالرغم من صداه المعرفي ومكانته العلمية التي تجاوزت انتماءه الجغرافي، وجعلت منه أحد الأعلام في المغرب عموما وليس في الجزائر فحسب.

2- المنفرجة وموقعها في المنظومة الثقافية المغربية والعربية:

المنفرجة قصيدة تقع في ثمان وأربعين بيتا، نظمها الشيخ ابن النحوي لشدة ألمت به، كما اتفق الدارسون؛ فقد جاء في شرح البوصيري عليها أن "القصيدة المسماة بالمنفرجة نظم الإمام العارف بالله أبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي... لما احتوت على حكم وفوائد ومواعظ، واشتهر عند العلماء أرباب القلوب أنهم إذا ضاق بهم الحال قرأوها فتنفرج عنهم الكروب"[17].

وتذهب المصادر إلى أن الاسم الذي وضعه ابن النحوي لقصيدته هو "تيسير الأرب وتفريج الكرب" إلا أنها عرفت بـ "المنفرجة"، ذلك أنه نظمها بعد أن ألمت به شدة[18]. وابن النحوي لم يكن أول من كتب قصيدة على هذه الشاكلة؛ فقد سبقت الإشارة إلى أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي كان قد نظم قبلا قصيدة على هذا النحو سماها بالمنفرجة، وهي تقع في 59 بيتا، وفيها يقول[19]:

الشِّدَّةُ أَوْدَتْ بِالمُهَجِ   يَا رَبُّ فَعَجِّلْ بِالفَرَجِ

وَالأَنْفُسُ أَمْسَتْ فِي حَرَجٍ وَبِيَدِكَ تَفْرِيجُ الحَرَجِ
هَاجَتْ لِدُعَائِكَ خَوَاطِرُنَا وَالوَيْلُ لَهَا إِنْ لَمْ تَهِجِ
يَا مَنْ عَوَّدْتَ اللُّطْفَ أَعِدْ عَادَاتِكَ باللُّطْفِ البَهِجِ
وَأَغْلِقْ ذَا الضِّيقِ وَشِدَّتَهُ وَافْتَحْ مَا سُدَّ مِنَ الفَرَجِ

وليس خافيا تأثير المنفرجة للإمام الغزالي على قصيدة ابن النحوي، ذاك التأثير الذي لم يكن يختص بهذه القصيدة وحسب، وإنما توسعت دائرته لتشمل مختلف الآثار التي تركها الشيخ، وهذا ما جعل الناس يقولون عن ابن النحوي أنه بمثابة الغزالي بالمغرب.

وقد جاء في تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبي القاسم سعد الله أن "القصيدة المشهورة بالمنفرجة هي التي قالها يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي التوزري الحمادي (لأنه استوطن قلعة بني حماد) وقد سميت كذلك لوقوع الانفراج بها كما قيل عنها، أو لاحتوائها على كلمة (تنفرج) في مطلعها"[20]. وقالها ابن النحوي – كما سبقت الإشارة – بعد مقدمه من رحلة الحج واكتشافه أن والي توزر قد اعتدى على ماله وأخذه غصبا. كما ذهب الأستاذان محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان إلى أن المنفرجة "قصيدة معلومة الإفادة، وقد خمّسها وشرحها كثير من العلماء وطبعت مع تخميس لها بالإسكندرية عام 1304هـ"[21].

وقد لقيت المنفرجة حظوة لدى أولي العلم في عهد ابن النحوي وبعده؛ فقد ذكر أحمد أبو رزاق أربع روايات مختلفة للمنفرجة عند بعض من عاصر ابن النحوي أو كان من الجيل الذي يليه، وهي رواية صاحب كتاب "مذاق الضرب في سلوك أهل الأدب"، ورواية العبدري، ورواية النقاوسي، ورواية أبي العباس أحمد الغبريني"[22]، فيما انفرد ابن حمادوش برواية أخرى[23]. وقد قال ابن حمادوش في تقديمه للقصيدة: "هي قصيدة الفرج، وهي المسماة بالمنفرجة، للإمام أبي الفضل بن محمد بن يوسف، عرف بابن النحوي – رحمه الله – فرويتها عن عدة من الفضلاء وكذا شروحها لشيخ الإسلام وغيره منهم أستاذي سيد عبد الله البصري عن البابلي عن سليمان بن عبد الدائم وسالم السنهوري عن النجم الغيطي عن شيخ الإسلام زكرياء عن أبي الفضل المرجاني عن أبي هريرة الحافظ الذهبي عن الحافظ أبي عبد الله بن رشيد الصنهاجي عن أبي بكر البلاطي عن عبد الله بن سيحون بن محمد بن الغنام عن أبي عبد الله محمد بن المعطي بن الرماح عن المؤلف نفعني الله به"[24]؛ فرواية ابن حمادوش تستند إلى التواتر والعنعنة، وهو ما يجعلها كذلك ذات مصداقية وإن كانت أبعد الروايات عهدا بالمؤلف.

وجاء في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبي القاسم سعد الله أن المنفرجة تعد من القصائد التي تجمع بين الأدب والتصوف، وأن الجانب الأخير هو الذي جعل النقاوسي يقوم بشرحها شرحا واسعا، وكان النقاوسي قد أخذ هذه القصيدة إجازة عن شيخه عيسى ابن أحمد الغبريني[25].

كما قام بشرحها أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري المتوفى سنة 843 هجرية[26]، وكذلك أبو الحسن علي بن يوسف بن علي البوصيري الشافعي الذي سمى شرحه "شرح القصيدة المسماة بالمنفرجة"[27]، وكذلك شرحها أبو يحي زكرياء بن محمد بن أحمد الأنصاري الشافعي المتوفى سنة 926 للهجرة، والذي سمى شرحه بـ "الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة"[28]، وشرحها كذلك الشيخ الزاهد عبد الرحمن بن حسن المقابري الشافعي، الذي سمى شرحه بـ "الأنوار البهجة في ظهور كنوز المنفرجة"[29]، وشرحها كذلك الشيخ محمد بن محمد الألجي ، المتوفى سنة 947 للهجرة، وقد سمى شرحه لها وتعليقه عليها بـ "اللوامع اللهجة بأسرار المنفرجة"[30].

وإضافة إلى هذه الشروحات، فقد قام بعض العلماء بمعارضتها شعريا وتخميسها أو تضمينها، كما فعل أبو عبد الله محمد بن مالك[31]، وأبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي[32] القرطبي المتوفى سنة 636 للهجرة[33]، حيث يقول[34]:

لاَ بُدَّ لِضِيقٍ مِنَ الفَرَجِ وَالصَّبْرُ مَطِيَّةُ كُلِّ شَجِ
وَبِدَعْوَةِ أَحْمَدَ فَابْتَهِجِ اشْتَدِّي أَزْمَةً تَنْفَرِجِي
قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَجِ
يَا نَفْسُ رُوَيْدَكِ لاَ حَرَجٌ وَثِقِي بِاللَّهِ عسَى الفَرَجُ
وَكَذَا مَا ضَاقَ لَهُ فَرَجٌ وَظَلاَمُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ
حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

حتى يقول[35]:

فِي لُطْفِ اللَّهِ لَنَا أَمَلٌ لاَ يُدْنِي مَطْلَبُهُ عَجَلُ
وَلِكُلِّ مُحَاوَلَةٍ أَجَلُ وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلُ
لِسُرُوجِ الأَنْفُسِ وَالمُهَجِ

والقصيدة طويلة تبدو فيها قصيدة المنفرجة حاضرة بألفاظها ومعانيها، وهو ما يبرز موقعها في الخارطة الإبداعية والثقافية العربية في القرون التالية لابن النحوي.

كما ضمّنها الشيخ أبو الفضل محمد بن أحمد بن أيوب الدمشقي الشافعي المتوفى سنة 905 للهجرة، بزيادة بيت في كل ما بين المصراعين وسمى تضمينه هذا بـ "التحفة البهجة في تضمين المنفرجة"[36]، وسمطها أيضا أبو عبد الله محمد بن علي التوزري الشهير بالمصري وسماه "عجالة الروية في تسميط القصيدة النحوية"[37].

وكذا كان من صدى هذه القصيدة أن كتب الشيخ سكيرج[38]، من علماء المغرب الأقصى، قصيدة على نفس رويها ووزنها وسماها كذلك بالمنفرجة. وفيها يقول[39]:

فَرَجُ اللَّهِ بِالقُرْبِ مِنْكَ يَجِي لاَ تُوقِعْ نَفْسَكَ فِي الحَرَجِ

سَلِّمِ الأَمْرَ تَسْلَمْ مِنْ عَصَبٍ فَالرِّضَا بِالقَضَا مَسْلَى المُهَجِ
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ عَلاَ فِي تَدْبِيرِهِ لَيْسَ مِنْ عِوَجِ
قَدْ مَضَى مَا قَضَاهُ فِي أَزَلٍ بِبَدِيعِ الأَحْكَامِ بِالحُجَجِ
أَعْطَى الأَشْيَاءَ حقَائِقَهاَ وَهِيَ عَنْهَا حقًّا لَمْ تَعُجِ

كما قام بمعارضتها شعريا العلامة العارف بالله سيدي مصطفى البكري[40]، وذلك بقصيدة سماها "المنبهجة"[41] وهي متن في الطريقة والسلوك، تقع في خمسين بيتا، يقول فيها[42]:

قُمْ نَحْوَ حِمَاهُ وَابْتَهِجِ وَعَلَى ذَلِكَ المُحَيَّا فَعُجِ
وَدَعِ الأَكْوَانَ وَقُمْ غَسَقًا وَاصْدُفْ فِي الشَّوْقِ وَفِي اللَّهَجِ
وَالْزَمْ بَابَ الأُسْتَاذِ تَفُزْ وَتَكُونُ بِذَلِكَ خِلَّ نَجِي
واخْرُجْ عَنْ كُلِّ هَوَى وَدَعِ التَّلْفِيقَ مَعَ الهَرَجِ

إلى أن يقول[43]:

يَسِّرْ وَاجْبُرْ كَسْرِي بِرِضاَ لِأَكُونَ بِوَصْلِكَ مُبْتَهِجِ
وَاخْلَعْ خِلَعَ الرِّضْوَانِ عَلَى صَبٍّ فِي حُبِّكَ هجِ
وَامْنَحْ قَلْبِي نَفَحَاتِكَ يَا مَوْلاَيَ وَعَجِّلْ بِالفَرَجِ

ومن خلال ما سبق يتضح جليا موقع المنفرجة في الحراك الثقافي الذي وسم عهد ابن النحوي والعهود المتأخرة عنه، ذلك أنها لقيت عناية عديد العلماء الذين دارسوها بالشرح والتعليق وكذا التقليد في الأخذ والتناول من خلال اتخاذها كنموذج شعري له من الأهلية الفنية والجمالية والدلالية ما يجعله جديرا بالتخميس والتضمين والتقليد كذلك.

الخاتمة:

لم يحظ ابن النحوي بواف من الدراسات، سواء ما تعلق بسيرته أو بإنتاجه الأدبي والفقهي، وهو بالرغم من أنه لم يترك شيئا ذا بال من الناحية الكمية إلا أن عمق تجربته الفنية التي نستشفها من ذلك النزر اليسير الذي بلغنا عنه، خصوصا الشعر منه، تؤهله لأن يتبوأ مكانته بين أولئك الأعلام الذين رسموا المشهد العام للحركية الثقافية إبان القرنين الخامس والسادس الهجري، وذلك في ظل الزخم الفكري والمعرفي الذي عرفته منطقة المغرب إبان تلك الحقب التي عرفت نبوغ رجالات عدة في مختلف شعب العلم وصنوف المعرفة وقطوف الأدب.

وطبيعي أن يترك حضور ابن النحوي أثرا في المنظومة الثقافية المغربية، لما للرجل من تمكن من ناصية اللغة وعلم بالأصول والعقيدة وتبحر في التصوف ودربة على فنون القول. وبالرغم مما أثر عن الرجل من ظلم الخصوم، وما لقيه في سبيل تدريس الأصول إلا أنه لم يخض سبل المجادلة والمناظرة التي كانت سائدة في الحياة الفكرية والثقافية المغربية حينئذ.

كما يمكن القول أن قصيدة المنفرجة شكلت موضوعا لافتا في الحراك الثقافي بعد القرن السادس الهجري، ليس في الجزائر وحسب، ولكن في المنظومة المعرفية العربية عموما، وذلك ما يتجلى في كثرة الشروح والأعمال التي تعرضت لها، لكن وبالرغم من ذلك فإنها لا تزال تعاني الإعراض النقدي والدرسي، ولا زال كثير من الإهمال يلف حضورها في الحياة النقدية والفكرية اليوم، بفعل عدم تسليط ضوء البحث فيها، خصوصا وأنها قصيدة تخبئ الكثير من الدلالات التي تشكل حقلا خصبا لإعمال طرائق القراءة ومناهج النقد، وكذا الدراسات المقارنة.

لم تكن قصيدة المنفرجة هي العمل الأدبي الوحيد لابن النحوي، الذي يُعَدُّ ربما فقيها أكثر منه أديبا أو شاعرا، بيد أنها عرفت أكثر من بقية شعر الرجل، ذلك أنها أحدثت أخذا ثقافيا وأدبيا لا بأس به، وقد راجعها – كما سبق – العديد من أعلام المغرب بعد القرن السادس الهجري، وبذلك عرف بها ابن النحوي أكثر من شيء آخر عداها.

إحالات البحث

1. عبد الوهاب الشريف بوعافية الحسني: الوسيلة إلى الله في القبول، مكتبة دار المنهاج القويم للنشر والتوزيع، مكتبة الإمام أبي الحسن الشاذلي للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1 ، 1430هـ/ 2009م، ص 872، هامش 2.
2. أحمد أبو رزاق: الأدب في عصر دولة بني حماد: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 284.
3. نفسه، ص 284.
4. المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص 269.
5. نفسه، ص 270، وكذلك: الأدب في عصر دولة بني حماد، ص 266.
6. نفسه، ص 271.
7. الوسيلة، ص 872، هامش 2.
8. أنظر: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخطيب:الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار صادر، بيروت، لبنان، 1982،ص 286.
9. أنظر القصيدة كاملة في: أبو الفضل يوسف بن النحوي: المنفرجة، شرح أبي علي البوصيري، تحقيق: أحمد أبو رزاق، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.
10. البلج: البلوج: الإشراق: يقال بلج الصبح أي أضاء، وبابه دخل، و(انبلج) وتبلج مثله، وتبلج فلان أيضا ضحك وهش، و(الأبلج) المضيء المشرق، يقال: صبح أبلج بيّن البلج بفتحتين وكذا الحق إذا اتضح. يقال: الحق أبلج والباطل لجلج. والبلجة بوزن الضربة نقاوة ما بين الحاجبين، يقال: رجل أبلج بين البلج إذا لم يكن مقرونا. وفي حديث أم معبد في صفة النبي ﷺ "أبلج الوجه"، أي مشرقه ولم ترد بلج الحاجب لأنها تصفه بالقرن.
11. سرج: ج. سراج ، وهو المصباح. أو النور المضيء.
12. المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص 271.

13. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، الدار التونسية للنشر، تونس 1973، ج1 ، ص 326.
14. نفسه ، ص 325.
15. رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1988 ، ص 172.
16. راجع : أحمد الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص 278-279.
17. شرح البوصيري ، ص 17.
18. راجع : حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مكتبة المثنى ، بيروت ، د.ط د.ت ، ج2 ، ص 1346.
19. الوسيلة ، ص ص 316-319.
20. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص 89.
21. إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ص 92.
22. أنظر: مقدمة أحمد أبو رزاق من خلال تحقيقه لشرح أبي علي البوصيري للمنفرجة، ص11.
23. أنظر: عبد الرزاق بن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتعليق وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 296.
24. نفسه، الصفحة نفسها.
25. تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 89-90 (بتصرف).
26. أنظر مقدمة أحمد أبو رزاق من خلال تحقيقه لشرح أبي علي البوصيري للمنفرجة، ص11.
27. أنظر: كشف الظنون، ج2، ص 1346-1347.
28. شرح أبي علي البوصيري، ص 11.
29. كشف الطنون، ج2، ص 1347.
30. نفسه، الصفحة نفسها.
31. نفسه، وكذلك: شرح البوصيري، ص11.
32. عبد الله بن نعيم الحضرمي: نشأ بتونس وتوفي بقسنطينة عام ستة وثلاثين وستمائة، أحد الأشياخ المنتصين للتدريس والرواية قرأ عليه ناس وسمعوا منه، منهم أبو عبد الله التميمي وغيره. (أنظر ترجمته في: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابعة ببجاية، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص 152-153).
33. عنوان الدراية، ص 271-272.
34. عنوان الدراية، ص 153.
35. المرجع السابق، ص 153.
36. كشف الطنون، ج2، ص 1347.
37. نفسه، وكذلك: شرح البوصيري، ص11.

38. أنظرها كاملة في: أبو العباس أحمد سكيرج: المنفرجة، نشر: محمد الحافظ التجاني، المطبعة الإسلامية، الأزهر، مصر، د.ط، د.ت.

39. المصدر نفسه ، ص 13.

40. هو العلامة الشيخ العارف بالله الكبير سيدنا أبو المواهب مصطفى بن كمال الدين البكري الحفني الخلوتي، مجدد الطريقة الخلوتية، ولد بدمشق الشام سنة (1099 هـ / 1677 م) ولازم الشيخ عبد الغني النابلسي فقرأ عليه كتب الشيخ محي الدين وطرفا من الفقه، رحل إلى بيت المقدس سنة (1122هـ)، أخذ الطريقة الخلوتية على الشيخ عبد اللطيف الحلبي، ثم ارتحل إلى استنبول وحج سنة (1161) بعدها رجع إلى مصر وتوفي بها (8 ربيع الثاني 1162 – 1749). تآليفه تبلغ نحو الألفين منها: الأنوار القدسية في شرح الوظيفة الزروقية، اللمحات في صلوات ابن مشيش، السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد، وورد السحر، وله عليه ثلاثة شروح، أخذ عنه ابنه الشيخ كمال الدين والشيخ شمس الدين الحفني المصري والشيخ محمد بن عبد الكريم السمان وغيرهم. (الوسيلة، ص 264).

41. أنظر: القصيدة في المرجع نفسه، ص ص 275-277.

42. المرجع نفسه، ص 276.

43. المرجع السابق، ص 276.